

هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والجماع ، والقسوس يحملونها ورده وسهم مكشوفة ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور ... » وقد كلت جهودهم بالنجاح ، فأقبل على الفناء جند كثيف ، على رأسه أعظم ملوك أوروبا ، وم إمبراطور ألمانيا فردريك بارباروس ، وملك فرنسا فيليب أوغسطس ، وملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد

أقبل الصليبيون على فلسطين من كل مكان بالبر والبحر والثأم شملهم في سرور ، التي أوى إليها الصليبيون من جميع أنحاء سوريا وفلسطين ، وقر رأيهم على مهاجمة عكا ، لحصانة موقعا ، ولأن الطريق إليها شاطل البحر ، حيث تمهيم سفنهم ، وكان البحر أعظم مساعد لهم ، يحمل إليهم المواد الحربية والمؤن والرجال ، وقد وصلوا أمام عكا في ١٥ رجب سنة ٥٨٥ هـ ، ووضوا عليها الحصار

عندما سمع صلاح الدين بحركة الفرنج جمع أمراءه للاستشارة ، وكان رأيه أن يهاجمهم في الطريق قبل أن يصلوا إلى عكا ، ولكن أمراءه أقتنوه بأن الخير في أن تدور الحركة أمام عكا . وعندما ذهب صلاح الدين إلى عكا وجد

من تاريخ الحروب الصليبية

## صلاح الدين يفاوض الإنجليز

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

استعاد صلاح الدين بيت القدس سنة ثلاث وثمانين وخمسة م بعد أن ظل في أيدي الصليبيين زهاء تسعين عاما ، وقد أثارت عودتها إلى حظيرة الإسلام نائرة فرنج أوروبا ، وبذل رجال الدين كل جهد ، ليوقظوا غضب الجماهير ، ويشركوا ملوك أوروبا وأمراءها في حرب صليبية جديدة ، وأرسل صاحب سدر صورة القدس في ورقة ، وصور فيها صورة كنيسة القيامة التي يحجون إليها ويعظمون شأنها ، « وفيه قبة قبر المسيح ، وصور على القبر فرسا ، عليه مسلم قد وطىء قبر المسيح ، وبالفرس على القبر ، وأيدي

الإسلام ما يمكن أن يكون مماثلا للحياة الحاضرة ، أو تصحيحا لبعض أخطاء الحياة الحاضرة . بيد أنه لا يصل إلى ذلك إلا بنظره هو ، وتفكيره هو ، بصورة يرتضها هو ، ولا يبالي أن يكون استدلاله في غير موضعه ، ولا أن يكون فكره قد نسر الأشياء على غير ما ينبغي أن تكون عليه ، أو على غير ما كانت عليه

فأعمال هؤلاء الدعاة ، ليست في الحقيقة إلا ضريا من هذيان هذا الوياء القرون الخبي ، ليس له أصل إلا فورة الدم في المحموم . فإذا استمر أمر الإسلام على هذا الذي نراه ، فقد انتهى كل شيء . وإذا قدر لهذا العالم الإسلامي أن تمرل طائفة منه هذا الخبل الخابل ، لتعيد النظر في الأصول الصحيحة لدينها ، والتي لقي بها هذا الدين عالم

الشرك والكفر فذكره ومزقه ، وأقام فيه بناء قائم الفناء ثلاثة عشر قرنا ، فيومئذ تبدأ المرحلة الأولى للجهاد طويل شاق ، يتحدى طواغيت الكفر بإيمان صحيح ، لا تشوبه شائبة من هوى أصحاب الأهواء ، بل هو طاعة لله ورسوله ، لا ينمى غيرها شيء يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم

وأعود فأقول : من ظن هذا تشاؤما وتبيطا فليظن ما شاء له الظن ! وليس ينمى عن الأسمى شيئا أن تقول له أنت مبصر بعينين لماحتين ، ولا عن الغروس في حوسة الملاك أن تقنعه بأنه خالد ليس للموت عليه سلطان

محمد محمد شاكر -

قد رأيت ما كان بالأمس ، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ،  
ووقفنا في وجوههم نصدم عنها فهم لاشك بقائلونا ،  
لنزاح عنها وينزلون عليها ، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل  
ما كنا عليه على عكا ويمظم الأمر علينا ، لأن العدو قد  
قوى يأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها ، ونحن قد  
تضعنا بما خرج عن أيدينا ، ولم تطل المدة حتى نستجد  
غيرها ، فوافق صلاح الدين على تخريبها مرغماً ، وتركها  
صلاح الدين إلى القدس ، وأمر بهارة سوره وتجديد مارت  
منه . وأما الفرنج فرحلوا إلى الرملة وأخذوا يمددون  
عسقلان ، وأجمعوا أمرهم على السير إلى بيت المقدس

بدأ حديث الصلح يومئذ بين ملك الإنجليز وصلاح  
الدين ، وكان العدو هو الذي بدأ يطلب الحديث في هذا  
الصلح ، إذ أراد أن يتحدث إلى الملك العادل ، وكان  
أول ما دار من حديث بين الفريقين أن قال الفرنج : « إنا  
قد طال بيننا القتال ، وقد قتل من الجانبين الرجال  
الأبطال ، وإنا نحن جئنا في نصرة إفرنج الساحل ،  
فاصلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه » ، ولما  
علم ملك الإنجليز بمقدم الملك العادل ، واجتمع به وأبدى  
له الرغبة في الصلح ، فقال له الملك العادل : أنتم تطلبون  
الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه ، حتى أتوسط بينكم  
وبين السلطان . وهنا بدأ ريتشارد يذكر أعلى شروطه  
للصلح ، مظهراً صرامة وقوة إذ قال : « القاعدة أن تمود  
البلاد كلها إلينا وتنصرفوا إلى بلادكم » ، ولم تكن هذه  
القاعدة بطبيعة الحال مما يقبله الملك العادل ، فأحسن له في  
الجواب ، وجرت بينهما منافرة ، انصرفا بعدها على غير  
اتفاق . ثم دارت بين الفريقين بعض المارك ، عاد بعدها  
ملك الإنجليز يعجم عود الملك العادل في أمر الصلح على  
يلين ، على غير جدوى

طلب ريتشارد إلى الملك العادل مرة أخرى أن يرسل  
رسولاً من لدنه ليتفاوض معه في أمر الصلح ، فأرسل إليه

الفرنج قد أحاطوا بها ، ومنوا كل اتصال بها ، فسكرو  
صلاح الدين في مواجهتهم . ويقول المؤرخون : لو أن  
صلاح الدين عمل تبعاً لرأيه الخاص ، وهاجم الصليبيين قبل  
أن يحاصروا المدينة لأتقدها ، ولكن تلك إرادة الله  
صمدت عكا أمام الفرنج زهاء عامين ، نال أهلها فيما  
الضر ، وأتهك الضمف فيما رجاها ، وبلغ منهم العجز  
إلى غاية لم يمدوا بعدها بدا من التسليم ، وكانت قوى  
صلاح الدين يومئذ مبعثرة ، في البلاد ، فكان جيش راقب  
يومئذ أمير أنطاكية ، وآخر مقيم في الرها مواجها لطرابلس  
للدفاع عن الحدود ، وثالث راقب صور ، ورابع في دمياط  
والإسكندرية ، ليحفاظ ضد الصليبيين القادمين من البحر ،  
ولذلك كان جيش السلطان أقل عدداً من الصليبيين ، ورغم  
طول الحصار لم ير صلاح الدين أن يسلم البلاد للعدو ، وعمل  
أهل عكا ما استطاموا للاحتفاظ بمدنيتهم ، ولكنهم أمام  
كثرة العدو اضطروا إلى أن يصلحوه على أن يسلموا إليه  
البلد وجميع ما فيه ، ويقدموا إليه ضريبة مالية كبيرة ،  
ويخرجوا بأنفسهم سالينهم وذرائعهم ونسائهم . ولما علم  
صلاح الدين بذلك أنكره إنكاراً عظيماً ، وعزم على أن  
يحول بين أهل عكا وبين التسليم ، ولكن مراءه إلا  
أعلام الفرنج نصب على أسوار المدينة يوم الجمعة ١٧  
جادي الآخرة سنة ٥٨٧ هـ ، ولم يف ملك الإنجليز بما  
وعده به أمرى المسلمين ، بل أحضرهم مكبلين بالجمال ،  
وحمل عليهم هو وجنده حملة الرجل الواحد ، فقتلهم ضرباً  
وطناً بالسيف ، ولم يطق ملك فرنسا القيام مع ريتشارد ،  
فعاد إلى بلاده ، وبق ريتشارد يعمل وحده

لما فرغ الفرنج من إصلاح أمر عكا ساروا مع شاطئ  
البحر إلى حيفا ، وخرج السلون ، بإزائهم بضايقة ونهم ،  
حتى وصلوا إلى يافا فلكروها ، وكانوا على أن يملكوا  
عسقلان والقدس ، فجمع صلاح الدين أمراءه ، واستشارهم  
فما يقل ، فأشاروا عليه بتخريب عسقلان ، وقالوا له :

وتكون ملكة الساحل ، على أن يكون مستقر ملكها بالقدس ، ويكون العادل ملك الساحل ، وأن يسلم إليه صليب الصليبيات ، وتكون القرى والحصون لطائفتين من فرسان الإفرنج هما الداوية والاسبتار ، وأن يطلق أسرى الفرنج والمسلمين . وإذا استقر الصلح على هذه القاعدة رحل ملك الإنجليز على بلاده . وقد قبل صلاح الدين هذا المشروع ، إذ به تكون بلاد الشام كلها تحت سيطرة صلاح الدين وأخيه . ويقال إن سبب الفشل يعود إلى أن أخت الملك لم تقبل أن تزوج من العادل لأنه مسلم ، وظن ريتشارد أن العادل يقبل أن يتنصر ليتم هذا الزواج ، ولهذا أبقى باب المفاوضات مفتوحا

وبرغم أن العادل لم يتنصر ، ولم يتم الزواج ، توفقت صلة المودة بين الملكين ، وحدث في اجتماع تم بينهما أن سأل ريتشارد الملك العادل أن يلتبس من السلطان صلاح الدين الاجتماع به ، فلما وصلت هذه الرسالة شاور السلطان الجماعة في الجواب عنها ، وبدا له رأى ناجح موفق ذلك أنه قال : « الملوك إذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك ، فإذا انقطع أمر حسن الاجتماع ، والاجتماع لا يكون إلا لمفاوضة في مهم ، وأنا لا أفهم لسانك ، وأنت لا تفهم لسانى ، ولا بد من ترجمان بيننا تتق أنا وأنت به ، فليكن ذلك الترجمان رسولا حتى يستقر أمر وتستتب قاعدة ، وعند ذلك يكون الاجتماع الذى يعقبه الوداد والمحبة » قال الرسول : ولما سمع ملك الإنجليز هذا الجواب استمظلمه ، وعلم أنه ليس من الهين أن يظفر بما يريد من السلطان . وكان صلاح الدين لا يرى الصلح مع الفرنج ، ويؤمن بأن الصلحة في دوام الجهاد حتى يخرجوا من الساحل ، ويعتقد أن الفرنج لا يؤمن غائلتهم ، ويرى أن هذا واجب في الحياة وتحديثه نفسه بأنه لو حدث به حادث الموت لا تكاد تجتمع هذه الجيوش التي تحت قيادته

مضت الرسل بين الفريقين تتحدث في الصلح لتفري

رسولا يثق به ، ظل يفاوض الملك حينما طويلا ، ومع ذلك لم يترشح الملك إلا للميلاء عن موقفه ، فقد ناد الرسول وأخبر العادل بما دار بينه وبين ريتشارد الذى قال للرسول : لا أرجع عن كلام أتمحدث به مع أخى وصديق - يمنى العادل - فكتب العادل رقعة أنفذها إلى السلطان تتضمن شروط الصلح التي عرضها ملك الإنجليز وفيها : « إن المسلمين والإفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وخرجت من يد الفريقين بالكسبة ، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، واتقدس متمبدا ما نزل عنه ولو لم يبق منا إلا واحد . وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأرد ، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ، فيمن به السلطان علينا ونفضطح ، ونترجخ من هذا التعب »

ولما وصلت الرسالة إلى السلطان استدعى أرباب الشورة في دولته ، وشاورهم في الأمر ، وانتهى التشاور إلى موقف حازم ، إذ أرسل السلطان في جواب الرسالة يقول لملك الإنجليز : « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا تتصور أن نزل عنه ، ولا تقدر على التفريط بذلك بين المسلمين . وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل ، واستيلائكم كان طارئا عليها ، لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما يقدركم الله على عمارة حجير منها ما دام الحرب قائما ، وما في أيدينا منها نأكل بحمد الله مفله وننتفع به ؛ وأما الصليب فهلاكه عندنا قرينة عظيمة . لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة واجمة للإسلام هي أبقى منها »

وفشل مشروع آخر للصلح عرضة ملك الإنجليز على العادل ، إذ أراد أن يتزوج العادل بأخته ، على أن يعطيا أخوها بلاد الساحل التي يبيده من عكا إلى يافا ومعتلان

ما أقفل معه . . . وعسقلان وما وراها يكون خرابا لا لنا ولا لكم .. » وقد كاد الصلح يتم لولا إصرار ملك الإنجليز على أن تبقى عسقلان وبعض البلاد عامرة بيده ، فقد أرسل إلى صلاح الدين رسالة يقول له فيها : « إن الملك يسأل ويخضع لك أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأى قدر لها في ملكك وعظمتك ، وما من سبب لإضرار عليها ، إلا أن الإنجليز لم يسمحوا بها ، وقد ترك القدس بالكلية ، فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس ، إلا في القيامة وحدها ، فأنت تترك له هذه البلاد ، ويكون الصلح عاما ، فيكون لهم كل ما في أيديهم من الدارون والى أنطاكية ، ولكم ما في أيديكم ، وينتظم الحال ، وإن لم ينتظم الصلح فالإنجليز لا يمكنونه من الرواح ، ولا يمكنه مخالفتهم » . وانقطعت مفاوضات الصلح عندما أعلن الملك أنه لا يمكن أن يخرب من عسقلان حجرا واحدا

استمد صلاح الدين للحرب ، ومضى بجيشه إلى يافا وافتتحها وكانت قلعتها على وشك أن تسقط في يده لولا أن أنجدها جيش الفرنج ، وقد أعجب ملك الإنجليز بالسرعة التي استولى بها صلاح الدين على يافا ، وقال : ما ظننت أنه يأخذ يافا في شهرين ، فكيف أخذها في يومين . وأرسل رسولا إلى السلطان يقول له : « بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا الأمر لا بد له من آخر ، وقد هلكت بلادى وراء البحر ، وما في دوام هذا مصلحة لنا وللكم » فأجاب السلطان : « إنك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان ، والآن قد خرجت يافا ، فيكون لك من صور إلى قيسارية » ؛ فجاء رسول الملك يقول : « إن قاعدة الإنجليز أنه إذا أعطى واحد لواحد بلدا سار تيمه وغلامه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين : يافا وعسقلان ، وتكون عساكرهما في خدمتك دائما ، وإذا احتجيت إلي ، وصلت إليك في أسرع وقت ، وخدمتك كما تعلم خدمتي » ، فأجاب صلاح الدين : « حيث

قواعده ، مع قيام الحرب بينهما ، ولم يستطع الطرفان أن يصلا إلى حل حاسم برغم كثرة الرسل ، وكثرة ما عرض من مشروعات . وقر رأى العدو على مهاجمة القدس والاستيلاء عليها ، ومضى بمد المدد لذلك ، فأحضر السلطان الأمراء عنده ، وقر رأيهم على الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت . غير أن الفرنج وقد أشرفوا على القدس حدث بينهم خلاف ، دفعهم إلى أن يعودوا ناكسين على أعقابهم ، وفرح المسلمون بهذه العودة وتجدد حديث الصلح ككرة ثانية ، وأرسل ملك الإنجليز رسولا يقول : قد هلكنا نحن وأنتم ، وإلّا صلح حقن الدماء ، ولا ينبغي أن تمتد أن ذلك لضغف منى ، بل للمصلحة ، ولا تقتر بتأخرى عن منزلى ، فالكبش يتأخر لينطح »

وأرسل رسالة أخرى فيها زفق وخضوع وزول عن كثير مما كان يطمع فيه ، ويقول له في هذه الرسالة : « إلى راغب في مودتك وصداقتك ، وأنه لا يريد أن يكون فرعون بملك الأرض ، ولا يظن ذلك فيك ، ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لي أن أهلك الإنجليز كلهم ، وهذا ابن أختي الكندهرى قد ملكته هذه الديار ، وسلمته إليك ، ليكون هو وعسكره تحت حكمك ولو استدعيتهم إلى الشنق سمعوا وأطاعوا . ويقول : إن جماعة من الرهبان المتعطين قد طلبوا منك كنانس فسا نخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضييق صدرك مما كان يجري في الرسالة مع الملك العادل تركتها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتني خربة قبلتها » . فلما سمع السلطان هذه الرسالة جمع أرباب مشورته فأجمعوا على الحاستة وعقد الصلح لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب . فكتب صلاح الدين إليه : « إذا دخلت ممنا هذا الدخول فاجزاء الإحسان إلا الإحسان . إن ابن أختك يكون عندي كبعض أولادى ، وسبيلتك

إلى ثقة عنده أن يمضي إلى الملك العادل ، ويقول له : إن  
زلوا عن عسقلان فصالحهم ، فإن العسكر قد ضجروا من  
ملازمة القتال ، والنفقات قد قلت

وانتهت المفاوضات بين العادل والملك بالنزول من  
عسقلان وعن طلب العوض عنها ، وتم توقيع المعاهدة على  
أن يسود السلام ثلاث سنين من تاريخها وهو الأربعاء الثاني  
والعشرون من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسة ، ونادى  
النادى في الأسواق : ألا إن الصلح قد انتظم في سائر  
بلادهم ، فمن شاء من بلادهم أن يدخل إلى بلادنا فليفعل ،  
ومن شاء من بلادنا أن يدخل إلى بلادهم فليفعل . قال ابن  
شداد وكان حاضرا ذلك اليوم : « وكان يوما مشهودا ،  
غشى الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور ما لا يعلمه  
إلا الله تعالى »

أما موقف صلاح الدين من الصلح فقد أوضحه ابن  
شداد بقوله : « إن الصلح لم يكن من إشارته ، فإنه قال لي  
في بعض محاوراته في الصلح : أخاف أن أصالح ، وما أدري  
أى شئ يكون مني ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقيت لهم  
هذه البلاد ، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ، وزى كل  
واحد من هؤلاء الجماعة قد تمد في رأس قلعه ، يعني حصنه ،  
وقال : لا أزل ، فيهلك المسلمون . هذا كلامه ، وكان كما  
قال . لكنه رأى المصلحة في الصلح ، لسامة العسكر ،  
وتظاهرهم بالمخالفة ، وكانت مصلحته في علم الله تعالى ، فإنه  
اتفقت وفاته بعبد الصلح ، ولو كان اتفق ذلك في أثناء  
الوقعات لكان الإسلام على خطر ، فإنا كان الصلح لإتوفيقا  
وسعادة له »

أمضى صلاح الدين مهادنة الصلح مرغما ، لما شاهده  
في الجند من ملل ، دل عليه إحجامهم عن منازلة العدو في  
مواقف هدة ، وكان يأمل أن يجدد قواه في هذه المدة من  
السلام ليستخلص ما بقي في يد الفرنج ، وبرغم طول الجهاد  
ومشقات القتال هذه المدة الطويلة في حرب الفرنج ، وقف

دخلت هذا المدخل ، فأنا أجيئك بأن نجعل هذين البلدين  
قسمين : أحدهما لك ، وهو ياقا وما وراءها ، والثاني لي ،  
وهو عسقلان وما وراءها ، فأرسل إليه الملك يشكره على  
إعطائه ياقا ، ويمجد السؤال في عسقلان ، ويقول : « إنه  
إن وقع الصلح في هذه الأيام سار إلى بلاده ، ولا يحتاج  
أن يشقى هاهنا » ، فأجابه السلطان في الحال إجابة المؤمن  
الواثق بقوله : « أما النزول من عسقلان فلا سبيل إليه  
وأما تشتيه هاهنا ، فلا بد منها ، لأنه قد استولى على هذه  
البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، كما  
تؤخذ أيضا إذا أقام ، إن شاء الله تعالى . وإذا سهل عليه  
أن يشقى هاهنا ، ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين  
وهو شاب في عنقوان شبابه ، ووقت اقتناص لذاته ، أملا  
يسهل على أن أشقى وأصيف ، وأنا في وسط بلادى ،  
وعندى أولادى وأهلى ، ويأتى إلى ما أريد ، وأنا رجل  
شيخ ، قد كرهت لذات الدنيا ، وشبعت منها ، وورفتها  
عنى ، والمسكر الذى يكون عندى في الشتاء غير المسكر  
الذى يكون عندى في الصيف ، وأنا أعتقد أنى في أعظم  
المبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن  
يشاء .. »

ومضى السلطان يطلب فرصة يحارب فيها العدو ،  
وإسكن الملل كان قد دب إلى عسكر الفريقين ، وكانت  
قد جددت أمور تستدعى عودة ملك الإنجليز إلى بلاده ،  
فأرسل رسولا إلى الملك العادل ، وقال له : قل لأخى الملك  
العادل بيسر كيف يتوصل إلى السلطان في معنى الصلح ،  
ويستريح لى منه عسقلان ، وأمضى أنا ، ويعنى هو في  
هذه الشريعة البسيرة يأخذ البلاد منهم ، فليس لى غرض  
إلا إقامة جاهى بين الإفرنج ، وإن لم ينزل السلطان عن  
عسقلان ، فأخذ لى منه عوضا عن خسارتى على عمارة  
سورها -

فلما سمع السلطان ذلك سيرهم إلى الملك العادل ، وأسر